خوجة ومشى باتجاه مبنى الشركة. وعلى بعد أمتار من بابها الأخضر لمح رجلاً ببذلة أنيقة ونظّارة طبية ومحفظة سوداء في يده، يسير نحو باب الشركة. كان هذا الرجل يحمل ملامحه الأولى، ملامحَ حسين خوجة ذاتها، تلك التي ضاعت منه منذ أن فتح عينيه هذا الصباح. لم يصدِّق ما رأت عيناه. وقف وتلمّس وجهه مرةً أخرى. كان الشاربُ لا يزال كثّاً، والوجهُ منتوءاً. ثم ركض نحو الباب فوجده قد أُغلق وراء حسين خوجة الآخر الذي كان يتسلّق درجات السلالم باتجاه المدخل. رفع صوته بالنداء:

ـ هاي.. يا هذا.. يا سيد.. هاي.. أنت..

لكنّ الرجل اختفى خلف زجاج الباب الداخلي دون أن يلتفت. قَرَعَ الجرس، فخرج إليه، بعد هنيهة، رجلٌ طويل أنيق، لا شارب له، انحدر عبر درجات السلم حتى وصل إليه:

ـ نعم، ماذا تريد؟

ـ أريد أن.. أنا.. ألا تعرفني؟

ـ أعرفك.. لديَّ أمر بألا تطأ قدمُك هذه الشركة.

ثم صعد السلالم واختفى وراء الباب الزجاجي هنيهةً، وعاد إليه بورقةٍ دَفَعَها إليه بحنق:

ـ خذ. هذه نسخة من قرار إنهاء مهامك. أنظرْ، لقد وقّعها المدير نفسه، السيد حسين خوجة.

حاول أن يحتجّ:

ـ ولكن أنا هو... أنا...

وانصرف البوابُ الجديد، لكن دون أن يعود من وراء الباب الزجاجي هذه المرة.

*

وفي المساء، قرر حسين خوجة، بعد يأس، أن يعود إلى البيت ويواجه زوجته بالحقيقة. عليها أن تفهم الأمر كما هو، فليس الذنب ذنبه إنْ تغيرتْ ملامحه بين ليلة وصبيحة. تشجّع وطرق الباب، فانفتح على ملامح ابنته سارة التي عادتْ أدراجها وصفقت البابَ وهي تصرخ:

ـ ماما، ماما، رجل...

ثم جاءت أمها تستطلع. فتحت الباب وابتسمت قليلاً وقالت:

ـ لن يتأخر. سيستقبلك حالاً.

ومن الداخل انبعث صوتٌ متسائلاً:

ـ ماذا هناك يا سلمى؟

ردّت الزوجةُ مطْمئِنةً:

ـ لا أحد، إنه عبّاس البوّاب...

**الجزائر**

---

أذكر أنه كان يدلف إلى المقهى متجهماً، يلتفت يميناً ويساراً باضطراب وقلق، كأنه يبحث عن شيء مجهول ضائع. ثم يجلس إلى طاولة متآكلة، وكرشه متدلية بين رجليه القصيرتين، يحتسي كؤوس الشاي المنعنعة بصوت حوشي. ومن حين لآخر، يفتل شاربه القطّي، ويجذب رشفة أو رشفتين من غليونه الطويل المزركش، نافثاً دخانه من منخاريه الواسعين، مشكّلاً سحباً كثيفة تخنق الروّاد وتُعْشي أبصارهم، وصاحبنا لا يحس بشيء، كأنه في عالم آخر. ثم يحشو ثقبتيْ أنفه بالسعوط، وشدقيه بالتين أو التمر أو الجبن البلدي المالح، ويأكل كل ذلك مع ما تيسر من ذباب وما يحضر في تلك الساعة.

كانت شخصيةُ هذا الرجل الغريبة تثير فضولي وتأسرني. بل كثيراً ما كنتُ أُحصي أنفاسه، أتفرس حركاته المضطربة، ونظراته الزائغة. ولم أستطع أن ألملم من خيوطها المخبلة إلا النزر اليسير. هل لأنه تعود أن يكتم شؤونَه حتى على الجني الأسود؟... أم أنه يحرص على الانزواء والانطواء، لما عاناه في حياته من آلام وعذابات؟... الحقيقة أنني لا أدري كيف أفسر هذا الفضول الآسر، وجاذبيةَ هذه الشخصية.

لكن، بقدر ما كان صاحبُنا يتسمر في مكانه صامتاً كأنّ الطير تحوم فوق رأسه، كان أيضاً يكسر هذا الصمت المطبق بقهقهة عالية مدوية، تهتز لها الجدران والأبوابُ والنوافذ والواجهة الزجاجية، وتمجّها الأذواق، وتستنكرها الأنظار!..

ولا يمر يوم دون أن أُسِرّ في نفسي الظمئة: صبراً، لا تتعجلي الأمر، كلُّ فاكهة في فصلها تنضج وتحلو، فيسهل أكلُها ومضغُها وبلعُها، وإن كنّا ـ نحن في أرض العروبة ـ نتناولها قبل أوانها!... غير أنّ فضولي، أو تحرياتي المجانية، لم تسفر عن نتيجة هامة، باستثناء جملة يتيمة، خطفتها أذني من فمه: «النسوان ولا السياسة!»... همس بها صاحبنا بينه وبين نفسه، وهو يرنو من الواجهة إلى «بارميت»، تختال بخطى بطيئة، كناقة سمينة.

لحظتُهُ بعينيَّ اللتين سيأكلهما الدود، يتلمظ بشفتيه واللعاب يندلق على بذلته الرمادية، يغمز ويهمز ويلمز، ويُظهر من جيبه أوراقاً خضراء لونُها فاتح، ويومئ ـ والعياذ بالله ـ إلى الخلفيّة التي تتمايل بها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، وهي تبتسم ببلاهة ودلال، وتزمّ شفتيها المشقوقتين، وتهفهف بحاجبيها وعينيها بعذوبة مصطنعة، وتضع سبّابتها على خدّها الذي لم يتورد من الخجل، كأنها تقول له: «عار عليك ما تطلبه!».. ثم أردفتها بإشارة من رأسها أن يتبعها، ويقتفي

خطوَها الوئيد، قبل أن يفلت الصيد من يديها. فنهض صاحبنا على الفور، يهرول وراءها بلهفة وشراهة، قالباً الكرسيَّ على الأرض، كثور هائج، والنادلُ يصيح أن يسدد الحساب. ولمّا حاول أن يمسك بتلابيبه، راغَ صاحبنا ببراعة، وأفلت من بين يديه، ثم تابع هرولته وراء الناقة، وعيناه لا تحيدان عن الخلفية، فهي المبتدأ والخبر، دون أن يفطن إلى ما سقط من جيبه، وقد التقطه النادلُ بخفة، فإذا به غلاف رسالة، لونه أصفر باهت. فضّه بيد مرتجفة، فلم يجد فيه إلا أوراقاً ذابلة!

بادرتُه قائلاً:

ـ خذ مني الحساب، وهاتِ الأوراق!

حدجني بنظرات الريبة:

ـ ماذا تجديك؟!

أجبته بصرامة:

ـ لا تحشر أنفك فيما لا يعنيك، وإلا أسمعتك ما لا يرضيك!

الآن، وفي نهاية الأمر، سأفضّ هذه الأوراق المنكمشة كوجه جدتي، وأدقق النظر فيها، لأسافر في أنهار هذه الشخصية، وأنفذ إلى باطنها!.. حسناً، لنر الورقة الأولى:

«في هذا المساء الحزين، قادتني قدماي إلى بارٍ صغير، ليس أكثر من غرفة شحيحة الضوء. وما إن نزعتُ سِداد البيرة الأولى، أفرغها في جوفي، وأمرِّر كمّي على فمي، حتى أحسستُ بيدٍ غليظة تمتد إلي، تمسك بي، تقيدني. تحسستُها حذراً، وإذا بها يدُ أبي الجود. ابتسم هازئاً:

ـ تعال معي!

ـ إلى أين؟!

جذبني من ذراعي، وقال بلهجة حاسمة منذرة:

ـ اخرسْ، لا تجعلني أجرجرك!

زممتُ شفتيّ، عملاً بنصيحة جدتي، يرحمها الله:

ـ قلْ للقصير: احنِ لأبوسك، وللأعمش: سحرتني عيناك الجميلتان!

ساقني ككلب مريض بالطاعون... فتح القبوُ فمَه، كعادته دائماً. ألقاني في بطنه الجائع، فأحاط بي أصحابه، ينهالون عليَّ بأحزمتهم وحبالهم المبللة، وأصواتهم تتداخل وتمطرني باللعنات البغيضة:

ـ حدِّثنا عن الخلفية، يا ابن الزانية...!

ـ أية خلفية تعنون؟!.. أنا مثل القرد الصيني، لا أتكلم، لا أسمع!.. أمشي في ظل الحائط.. أعمل، آكل، أشرب، أنام، كبهيمة عجماء!

ـ ماركسي، لا تنكر!.. وإلا لِمَ تطيل اللحية؟

ـ وهل الماعز هو أيضاً ماركسي؟

ـ أسكتْ يا ابن الكلب، لا تحاولْ أن تستغفلنا!

كانوا يغطسون رأسي في الماء البارد، لا يُصغون إليَّ، لا يكترثون لي، حتى تهاوت كتفاي، وتقوّس ظهري:

ـ دعوني، ما الذي تريدونه مني؟.. أنا لا أكتم سراً!.. رأسي يدور، والعالم حولي يدور كخذروف!

كانت يداي ترتعشان كمن يوشك أن يطير، ورجلاي لا تقويان على حملي، فتهاويتُ في مكاني!

تمكنتُ بمشقة أن أفتح عينيَّ، وبيطء وخوف شديد، هززتُ رأسي وشخصتُ أمامي، فوجدتُ نفسي ملقًى على شاطئ البحر، متكوراً ككيس!»

مسكين وأيّ مسكين هذا الرجل، إن كانت القصة صحيحة. ولم لا تكون صحيحة؟.. ما علينا، لنفتح الورقة الثانية.. يقول صاحبنا المحترم:

«مضى على هذه الحكاية عشرون عاماً بالتمام والكمال، من سنة ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢. كنت خلالها أكتب ذكرياتي الحزينة. وكنتُ بطبيعة الحال أرشّ عليها البهارات الضرورية، لأجعل من شخصي الكريم بطلاً صنديداً، يحتل مكانه اللائق على الخريطة العربية من الماء إلى الماء، وليصير اسمي على كل لسان عربي فصيح، ينظم حولي الشعراءُ الفحولُ القصائدَ العصماء..!

قبيل الفجر، أيقظني أبو الجود من نومي اللذيذ، جرّني بصلافة، أخرجني دون أن يسمح لي بارتداء البذلة، وأنا مطأطأ الرأس، أتعثر بجلبابي. ساقني إلى القبو القذر، الذي فغر فمه بمجرد أن رآني، فتضاءل الهواء في رئتي، وبُحّ صوتي.

تحلقوا حولي وجوهاً مقطّبة، وعيوناً شرسة، تتطاير شرراً:

ـ ماذا تريدون مني ثانيةً؟.. أنا لم أسئ في حياتي إلى نملة!

ـ قل لنا يا ابن بطوطة: هل قمتَ برحلةٍ إلى السودان أو باكستان أو ايران أو افغانستان؟

ـ لا، ولا غيرها من البلدان النونية!

ـ ولِمَ تطلق لحيتك الكثّة البيضاء؟!

ـ اللعنة على هذه اللحية، التي تجرّ عليَّ تهماً باطلة.. سأحلقها ما إنْ يتقياني قبوكم!

ـ هذا إذا لم يأخذك الشيطان!

ـ يبدو أنني حشيّة قش تتدربون عليها!

أحسستُ بغصة في حلقي، والكلمات تموت في صدري، وأنني في دوّامة لا تنتهي.. وأصابني تقزز وقيء بغيض، فقذفتُ ما بجوفي، وقذفني القبو إلى الطريق..!»

ضغطتُ على الأوراق، وطويتها بعصبية.. اقترب مني النادل، وقال بلهجة هازئة:

ـ أخرجوا الزنديق في ذلة وانكسار!

سألته في دهشة:

ـ الزنادقة كثر، فمن تقصد؟

ـ صاحبنا الذي تسلل من المقهى دون أن يسدد الحساب! الآن سيؤديه أضعافاً في القبو القذر!.. على الباغي تدور الدوائر!

ـ يا للشقي!.. وماذا فعل؟!

ـ قُبض عليه بتهمة اغتصاب امرأة شريفة عفيفة!

ـ أتقصد البارميت؟!

ضحك مني قائلاً:

ـ يا لك من أبله!.. وهل يخطر ببالك أن هناك من هو أنقى وأطهر منها؟!

**المغرب**